ومن قيلات أهل الكتابين، الغيلات الويلات، التي طَمأنَتْهم كما يزعمون فلا يحيدون عن أية خاطئة:

﴿وَقَالُواْ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُواْ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١١١﴾﴾:

وإذا انحصرت الجنة فيهما - كما يدعيها كلّ لنفسه - فانحسرت عمن سواهم طول تأريخ الرسالات، فأين - إذاً - مؤمنو الشرائع السابقة على شرعة التوراة والإنجيل؟ أفهم في النار على إيمانهم! أم لا في جنة ولا نار!.

فيا للحقد من طيش قاحل وحكم جاهل أن ﴿لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا﴾ كما يدعيه اليهود و﴿لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ﴾ كما تدعيه النصارى، فلكي يطردوا المسلمين - ككّل - عن الجنة لأنهم على شرعة جديدة يطردون معهم كافة المؤمنين في كل أدوار الرسالات قبل موسى والمسيح عليهما السلام.

﴿تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ﴾ كلُّ أمانيهم، على ما هم عليه من تخلفات عقائدية وعملية، فمجرد الجنسية اليهودية أو النصرانية تكفي لدخول الجنة فوضى جزاف! ولكن الإيمان والعمل الصالح في غيرهما لا يكفيان لدخولها! ﴿قُلْ هَاتُواْ بُرْهَٰنَكُمْ﴾ فطرياً أم عقلياً أم كتابياً، أم في أيٍّ من الأعراف البشرية السلمية ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ في أمانيكم.

وترى كيف تكون ﴿تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ﴾ جمعاً فضلاً عن كل أمانيهم؟ ولم تأت هنا إلّا واحدة ﴿لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ﴾!

لقد ذُكرت هنا أماني عدة هذه أخيرتها، ثم وهي تجمع كلّ أمانيهم الساقطة فإنها كخلفيَّة شاملة لها كلها.

أترى القرآن هنا يعارض دعواهم بالمثل، معاكساً تلك القولة الخاوية

أن «لن يدخل الجنة إلّا من كان مسلماً» كجنسية إسلامية تكفيها النسبة كيفما كانت؟ كلّا! وإنما:

﴿بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١١٢﴾﴾:

﴿بَلَىٰ﴾ هنا تزييف لـ﴿لَن يَدْخُلَ﴾ - ﴿بَلَىٰ﴾ يدخلها غير اليهود والنصارى، وكضابطة عامة رافضة لحواجز الجنسيات والطائفيات ﴿بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ﴾.

فإنما هو إسلام الوجه لله بكلّ الوجوه ظاهرة وباطنة، عقائدية وعملية، فردية وجماعية، ﴿أَسْلَمَ... وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ إسلام الإحسان وإحسان الإسلام وهما الإسلام عقائدياً وعملياً، ﴿فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ﴾ على قَدْرِ إسلام وجهه وإحسانه ما هو مسلم محسن ﴿وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾.

فقد يسلم مسلم وجهه لله في وجهيه وهو غير مُحْسنٍ، كالعقيدة غير الصالحة والعمل غير الصالح، أم يُحْسِن في وجهٍ واحدٍ، عقيدة أو عملاً ولا يُحْسنِ في الآخر، فهو أيضاً غير محسن، إذاً ﴿وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ يعمّ إحسان وجهي الباطن والظاهر لله دون اختصاص بوجه، أم ترك الإحسان في إسلام الوجه.

فلا بدَّ - إذاً - من إحسان وجه العلم والعقيدة والنية وسائر الطوّية، إلى إحسان وجه الأعمال، المنبثقة من الوجه الأول.

﴿بَلَىٰ﴾ هذا هو كفيل الجنة، دون أية جنسية أو طائفية أو عنصرية أو إقليمية في ذلك الإسلام، فإنما الإسلام المحسن لا سواه، سواء أكان إسلاماً في شرعة نوح وإبراهيم، أم موسى وعيسى، أم محمد صلوات الله عليهم أجمعين، بل وإسلام التوحيد المزيج، أم وغير الكتابي ما دام صاحبه مسلماً وكما يقول الله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ مَنْ

ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾[1] وهم كلهم موحدون، بين مسلم وهود ونصارى - وهم كتابيون - أم عوان وهم الصابئون، أم وموحد غير كتابي كالمجوس: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلصَّٰبِـُٔونَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلْمَجُوسَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾[2] فما لم يدخل فيهم ﴿ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟﴾ كان ﴿لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ ثم إذ دخلوا فيهم ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ﴾!.

أجـــل ﴿لَيْسُوا۟ سَوَآءً ۗ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴿١١٣﴾ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١١٤﴾ وَمَا يَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَلَن يُكْفَرُوهُ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُتَّقِينَ ﴿١١٥﴾﴾[3] ﴿بَلَىٰ﴾ إنما هي حكمة واحدة ثم «لا وكلا»! ﴿بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ﴾ لا للأُمنيات والهوسات الجهنمية، إنما «لله» ثم ﴿وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ في إسلام وجهه، يسلمه لله كما أمر الله، مهما كان قاصراً دون تعمدٍ ولا بطّال أو متبتل في شرعة الله ﴿فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ﴾ حيث إن إسلام الوجه لله محسناً هو العروة الوثقى، مصدراً لكلِّ خيرات الإيمان مهما اختلفت مراتبها بمراتبه حسب مختلف الحالات والاستعدادات: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۗ﴾[4].

فالمسلم الذي يُسْلِم وجهه لله محسناً، له أجرهُ عند ربه، والكتابي الذي يُسْلِمُ وجهه لله مُحْسناً له أجره عند ربه، فـ ﴿لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِىِّ

(١) سورة البقرة، الآية: ٦٢.
(٢) سورة الحج، الآية: ١٧.
(٣) سورة آل عمران، الآيات: ١١٣-١١٥.
(٤) سورة النساء، الآية: ١٢٥.

أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِۗ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ وَلَا يَجِدْ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾[١].

أجل وإنها ضابطةٌ ضابطة كلَّ التخلفات والطاعات دونما فوضى جزاف، ضابطة في طرفي السلب والإيجاب: ﴿بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَٰطَتْ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾[٢].

هذا الحبيس بخطيئَته المحيطة به، فهو أعزل عن كلِّ وجهة وواجهة ربانية، إلّا وجهات الهوى الهاوية، ثم ﴿بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ فأخلص ذاته وكل تعلقاته في وجهاته وواجهاته لله ﴿وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ في إسلامه ﴿فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ ثم بينهما عوان متوسطات ولا يظلمون نقيراً.

هذا - ثم نرى بين اليهود والنصارى أنفسهم تناحراً في الكيان وتهافتاً في سند الأمان:

﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ لَيْسَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ عَلَىٰ شَىْءٍ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ لَيْسَتِ ٱلْيَهُودُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَۗ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْۚ فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١١٣﴾﴾:

تلك هي قالة كلٍّ من أهل الكتابين مناحراً لواقع الحق في البين ﴿لَيْسَتِ ٱلْيَهُودُ عَلَىٰ شَىْءٍ﴾ من الحق ولا حق من الجنة، كما ﴿لَيْسَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ عَلَىٰ شَىْءٍ﴾ من الحق ولا حق من الجنة[٣] ﴿وَهُمْ يَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَۗ﴾ توراةً وإنجيلاً،

(١) سورة النساء، الآية: ١٢٣.
(٢) سورة البقرة، الآية: ٨١.
(٣) تفسير الفخر الرازي ٤: ٧ روي أن وفد نجران لما قدموا على رسول الله ﷺ أتاهم أحبار اليهود فتناظروا حتى ارتفعت أصواتهم فقالت اليهود: ما أنتم على شيء من الدين وكفروا بعيسى عليه السلام والإنجيل، وقالت النصارى لهم نحوه وكفروا بموسى والتوراة.

القائلان قول الحق، وأنه الإيمان والعمل الصالح، دون طائفية قاحلة وعنصرية جاهلة ﴿كَذَٰلِكَ﴾ البعيد عن ميزان الحق ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ وهم الأميون الذين لا يعلمون الكتاب إلّا أماني وإن هم إلّا يظنون، والمشركون الناكرون لكتاب الوحي قالوا ﴿مِثْلَ قَوْلِهِمْ﴾ رغم الفرق الفارق بين حكم الكتاب واللّاكتاب، فهم نزّلوا أنفسهم منزلة الذين لا يعلمون، تجاهلاً بحق الكتاب لأهل الكتاب، أن ليسوا سواءً مع من لا يدين بكتاب ﴿فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ أياً كان مما حكم به الكتاب وحياً أم حرفوه عن جهات أشراعه.

فحين يتقاذف أهل الكتاب فيما بينهم - وهم يتلون الكتاب - كيف يرجى من الذين لا يعلمون ألّا يقذفوهم أنهم - ككل - ليسوا على شيءٍ؟ وقد قذفوا كل أهل الكتاب - بمن فيهم المسلمون - أنهم ليسوا على شيءٍ!.

فليوحد أهل الكتاب كلمتهم على حق لهم أم حقايق، كيلا يرفضهم المشركون بما يتقاذفون فهم سواءٌ: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾[1] - ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ ۗ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ۚ فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٦٨﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلصَّٰبِـُٔونَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٩﴾﴾[2].

ولندرس هنا نحن المسلمين - وبأحرى من غيرنا - ألّا ننجرف في

(١) سورة آل عمران، الآية: ٦٤.
(٢) سورة المائدة، الآيتان: ٦٨، ٦٩.

منجرفات الخلافات العارمة بين الفرق الإسلامية، فكلٌّ يرمي أصحابه في الشرعة الواحدة أنهم ليسوا على شيءٍ، ولقد سمعت مغفلاً من إخواننا في المدينة المنورة، يُسمى عميد الجامعة الإسلامية فيها يقول: إن الشيعة الرافضة شرّ من اليهود، كما سمعت مغفلاً آخر منّا في مكان آخر يقول: إن الفلسطينيين شرٌّ من اليهود! «وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتابَ أَفَلا يَعْقِلُونَ»؟!

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ وَسَعَىٰ فِي خَرَابِهَآ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَآ إِلَّا خَآئِفِينَ ۚ لَهُمْ فِي ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ وَلَهُمْ فِي ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١٤﴾﴾:

نرى ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ﴾ - الدالة على قمة الظلم - هنا وفي ثلاث صيغ أخرى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَٰدَةً عِندَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ﴾[١] - ﴿. . . مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾[٢] - ﴿مِمَّن كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا﴾[٣] مما يدل على أن هذه الأربع أظلم الظلم على النفس والحق وعلى الآخرين، وعلّها خاصة بالمظالم العملية لا والعقائدية.

وليس يختص بالذين منعوا الرسول ﷺ عن المسجد الحرام أن يذكر فيها اسمه وسعى في خرابها - لمكان الجمع - مهما كان أصدق مصاديقه ممنوعاً وهو الرسول وممنوعاً عنه وهو المسجد الحرام، وممنوعاً منه وهو ذكر الله فيه[٤].

(١) سورة البقرة، الآية: ١٤٠.
(٢) سورة الأنعام، الآية: ٢١.
(٣) سورة الأنعام، الآية: ١٥٧.
(٤) وبمناسبة الآيات السابقة المندّدة باليهود قد تعمّ اليهود، فقد كانوا يمنعون المسلمين عن الصلاة إلى المسجد الحرام بعد تحويل القبلة، أم وسعوا في تهديم الكعبة وما استطاعوا. كما وتعمّ هدم البيت المقدس بواسطة بخت نصر وسواه من الطغاة، أم أي منع من أي مسجد أو مسجد أو سجدة وتهديم أي منها طول زمن التكليف على مدار الرسالات الإلهية.

﴿أَن يُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ وَسَعَىٰ فِى خَرَابِهَآ﴾ هما يحدّدان أظلم المنع، الناحيان منحى الصدِّ عن سبيل الله، وأن يُترك ذكر اسم الله، وهم - بطبيعة الحال - المشركون والملحدون أمّن نحى منحاهم في منعهم وسعيهم.

مساجد الله هي المختصة بذكر اسم الله فكيف يمنع ان يذكر فيها اسم الله؟ وإنما تعمر بذكر اسم الله والدعوة فيها إلى الله فكيف يُسعى في خرابها في حقل الذكر؟ ولا يسعى في خرابها إلّا المكذبون بالله وآياته.

فكم من ساعٍ لعمران مساجد الله في بنيانها وهو ساعٍ في خرابها من حيث إنها مساجد الله، ويمنع أن يذكر فيها اسم الله، ولا فارق بينه وبين من يهدم بنيانها، حيث المعني من خرابها تهديمها من حيث إنها مساجد الله ومحال ذكر اسم الله.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ البعيدون عن الله ﴿مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَآ إِلَّا خَآئِفِينَ﴾ حين كانوا أذلّاءَ صِغاراً، كما ﴿مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَآ إِلَّا خَآئِفِينَ﴾ حين كانوا أعزة وكباراً، فإن شرعة الحق لا تسمح لهم أن يدخلوها، وعلى أهل الحق ألّا يسمحوا لهم أن يدخلوها، إذاً فـ﴿مَا كَانَ﴾ نهي عن أن يدخلوها على أية حال، وقد صرح المنع بالنسبة للمشركين: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَا﴾[1].

﴿لَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ﴾ في شُرْعَةِ الحق وميزانه، ومنه عدم السماح لدخولهم فيها ﴿وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ لا أعظم منه إذ لا أظلم منهم، وإنما يقدر العذاب بقدر الظلم.

وتعني ﴿مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ﴾ إضافة إلى محال السجدة: المساجد - نفسَ السجدة وأزمنتها، اعتباراً أن ﴿مَسَٰجِدَ﴾ جمع لمثلث المسجَد والمسجِد،

(١) سورة التوبة، الآية: ٢٨.

اسم مكان وزمان ومصدراً ميميّاً، إذاً فهو المنع عن عبادة الله في أصلها وفي أزمنتها وأمكنتها، مهما اختصت ﴿أَن يَدۡخُلُوهَآ﴾ بأمكنتها.

﴿وَلِلَّهِ ٱلۡمَشۡرِقُ وَٱلۡمَغۡرِبُۚ فَأَيۡنَمَا تُوَلُّواْ فَثَمَّ وَجۡهُ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ وَٰسِعٌ عَلِيمٞ ١١٥﴾:

لقد تُطمئِن هذه الآية المؤمنين أنهم إن مُنعوا عن مساجد لله، فكلُّ الأرض مساجد لله، و﴿ٱلۡمَشۡرِقُ وَٱلۡمَغۡرِبُۚ﴾ بما هما الجهتان الأصيلتان تشملان كلّ الجهات ﴿فَأَيۡنَمَا تُوَلُّواْ﴾ وجوهكم إلى الله في مساجد وسواها ﴿فَثَمَّ وَجۡهُ ٱللَّهِۚ﴾ إذ لا يختص وجهه بالمساجد مهما كانت أفضل من سائر بقاع الأرض، ولا يعني وجه الله هنا إلّا المتوجّه اليه في العبادة والدعاء، والوجه - ككلّ - هو ما يواجِه الشيءَ أو يواجَه به، وكل الكائنات مواجِهةٌ ربَّهم بكلِّ الوجهات والوجوه التكوينية، وهو مواجَه لهم فيها، وكذلك التشريعية لمن هو متشرع بشرعة من الله.

فليست الآية لتعني أن القبلة الخاصة ساقطة عن وجوب الاستقبال إليها في الصلوات، بل هي - بمناسبة آية المنع عن المساجد - توسعةٌ في أمكنة السجدة لله وقد يشهد له ﴿فَأَيۡنَمَا﴾ دون «إلى أين» وليس فرض القِبْلةِ تضييقاً لدائرة وجه الله، إنما هو مصلحة جماعية وَحْدويّة للجماعة المسلمة أن يوجهوا وجوههم إليها لوجه الله الذي ليس له زمان ولا مكان، فكما أن الوجهة المعرفية والعقائدية ثم العملية للمسلمين واحدة، فلتكن قِبْلَتَهُم في صلاتهم - كذلك - واحدة، كشعيرة ظاهرة من مشاعر الوحدة، أم إن تولي الوجه إلى الله يعمّ الصلاة وسواها من وجوه الاتجاه إلى الله، وشرط القِبْلَةِ خاص بالصلوات بدليل خاص، وهنا أيضاً يسقط شرطها عند الضرورة، فهي - إذاً - ضابطة عامة لكلّ الاتجاهات إلى الله صلاة واحدةٌ وصلات واحدة ﴿فَأَيۡنَمَا تُوَلُّواْ فَثَمَّ وَجۡهُ ٱللَّهِۚ﴾، في مساجد الله وسواها، إلى القِبْلةِ وسواها، مهما كانت القِبْلة شرطاً مصلحياً في قسم من الاتجاهات إلى الله

﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَٰسِعٌ﴾ الاتجاهات ﴿عَلِيمٌ﴾ بالمضايقات والضرورات التي تمنعكم عن مساجده، أم عن القبلة.

فإذا صلّى لغير القبلة إذ لا يعرفها ولا يسطع، ثم تبيّن له أنه صلاها إلى غير القبلة أعادها ما لم يفت الوقت وكانت القبلة خلفه ولا يعيدها إذا فات أو كانت بين المشرق والمغرب(١).

(١) تدل عليه صحيحة عبد الرحمن بن أبي عبد الله عن أبي عبد الله عليه السلام قال: إذا صلّيت وأنت على غير القبلة واستبان لك أنك صليت وأنت على غير القبلة وأنت في وقت فأعد وإن فاتك الوقت فلا تعد، أقول: وقد خصّص ذلك بما كانت القبلة على ظهره في صحاح عدة. وفي التهذيب عن محمد بن الحصين قال كتبت إلى عبد صالح: الرجل يُصّلي في غيم في فلاة من الأرض ولا يعرف القِبْلة فيُصلي حتى فرغ من صلاته بدت له الشمس فإذا هو صلّى لغير القِبْلة يعتد بصلاته أم يعيدها؟ فكتب يعيد ما لم يفت الوقت أولم يعلم أن الله يقول - وقوله الحق - ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّواْ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ﴾، وفي تفسير العياشي عن الباقر عليه السلام في الآية قال عليه السلام أنزل الله هذه الآية في التطوع خاصة ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّواْ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ١١٥]، وصلى رسول الله صلى الله عليه وآله إيماناً على راحلته أينما توجهت به حين خرج إلى خيبر وحين رجع من مكة وجعل الكعبة خلف ظهره.

أقول: هذا الإطلاق يناسب التطوع كأصل كسائر الاتجاهات غير الواجب فيها الاستقبال إلى القبلة وكما يناسب الفرض عند الضرورات، وهو على آية خاص مخصوص بغير فرض الصلاة، أم مطلق على الوجه الأول في ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّواْ﴾ [البَقَرَة: ١١٥].

وفي الدر المنثور ١: ١٠٩ - أخرج البخاري والبيهقي عن جابر بن عبد الله قال رأيت رسول الله صلى الله عليه وآله أنمار يصلي على راحلته متوجهاً قبل المشرق تطوعاً، وعنه أن النبي صلى الله عليه وآله كان يصلّي على راحلته قبل المشرق فإذا أراد أن يصلي المكتوبة نزل واستقبل القبلة وصلى.

وفيه عن عامر بن ربيعة قال كنا مع رسول الله صلى الله عليه وآله في ليلة سوداء مظلمة فنزلنا منزلاً فجعل الرجل يأخذ الأحجار فيعمل مسجداً فيصلي فيه فلما أصبحنا إذا نحن قد صلينا على غير القِبْلة فقلنا: يا رسول الله صلى الله عليه وآله لقد صلّينا ليلتنا هذه لغير القِبْلة فأنزل الله ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ﴾ [البَقَرَة: ١١٥] فقال صلى الله عليه وآله: مضت صلاتكم، وفيه أخرج الدارقطني وابن مردويه والبيهقي عن جابر بن عبد الله قال بعث رسول الله صلى الله عليه وآله سرية كنت فيها فأصابتنا ظلمة لم نعرف القبلة فقالت طائفة منا: القبلة هاهنا قبل الشمال فصلّوا وخطّوا خطاً وقال بعضنا: القبلة هاهنا قبل الجنوب فصلّوا وخطّوا خطاً فلما أصبحوا وطلعت الشمس أصبحت تلك الخطوط لغير القبلة فلما قفلنا من سفرنا سألنا النبي صلى الله عليه وآله فسكت فأنزل الله، ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ﴾. =

وعلى أية حال فالآية ضابطة تعمُّ الكون كلّه لأمكنة الصلاة، واتجاه المصلي فيها، مهما خصت في خاصة الموارد بنص الكتاب أو السنة، وهي ما أمكن الاتجاه فيه إلى القبلة حيث الأمر بتولي الوجوه شَطْرَ المسجد الحرام في آيته يخص المتمكن، ثم تعم غيره ﴿فَأَيۡنَمَا تُوَلُّواْ﴾.

وقد تكون صلتها بالآية السابقة أن اليهود كانوا يعترضون على الرسول ﷺ والمسلمين هامَّةَ تحويل القبلة من القدس إلى المسجد الحرام، وإن صلاتهم - إذاً - باطلة إذ لا يتجه إليهم ربهم إلّا إلى القِبْلَةِ التي كانوا عليها، فرد الله عليهم بما رد، أن له تحويل القبلة ﴿فَأَيۡنَمَا تُوَلُّواْ فَثَمَّ وَجۡهُ ٱللَّهِۚ﴾ (١) (٢) وطبعاً كما يأمر الله.

= أقول: وقد استفاض الحديث عن الرسول ﷺ وأئمة أهل بيته عليهم السلام أن «بين المشرق والمغرب قبلة» وطبعاً هذه التوسعة لمن لا يعرف القبلة ولا يستطيع أن يصلّي مرات إلى جهات، أو تأكد من القبلة وهو خاطئ وقد خرج الوقت.

(١) سورة البقرة، الآية: ١١٥.

(٢) نور الثقلين ١ : ١١٨ في الاحتجاج للطبرسي قال أبو محمد عليه السلام قال رسول الله ﷺ لقوم من اليهود: أو ليس قد ألزمكم في الشتاء أن تحترزوا من البرد بالثياب الغليظة وألزمكم به في الصيف أن تحترزوا من الحرّ فبدا له في الصيف حين أمركم بخلاف ما أمركم به في الشتاء؟ فقالوا: لا فقال رسول الله ﷺ: فكذا لكم الله تعبدكم في وقت بصلاح يعلمه بشيء ثم تعبدكم في وقت آخر لصلاح آخر يعلمه في شيء آخر فإذا أطعتم الله في الحالتين استحققتم ثوابه فأنزل الله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡمَشۡرِقُ وَٱلۡمَغۡرِبُۚ﴾ [البَقَرَة: ١١٥] يعني: إذا توجهتم بأمره فثم الوجه الذي تقصدون منه الله وتأملون ثوابه.